الأحرف والقراءات القرآنية
فى ضوء الدرس اللغوى

مقدمة:

الحمد لله الذى أنزل القرآن بلسان عربى مبين، تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ... والصلاة والسلام على أفصح خلق الله محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن والاه ..

أما بعد ..

فإن خير ما يبذل من جهد ووقت ، وأبقى ما ينفع بعد الموت، أن يتوخّى الباحث بيان ما غمض من كتاب الله، ودرء ماوجه إليه من سهام المغرضين والجاهلين ... واستمرارا لهذا النهج الذى التزمته فى معظم بحوثى السابقة أقوم اليوم بمحاولة أدعى أنها تقدم فهما متسقا مع طبيعة اللغة ، ومع النص النبوى ، ومع التطور التاريخى حول مفهوم الأحرف السبعة، وعلاقتها بالقراءات ، وعلاقتها بطبيعة اللغة ونشأتها وتطورها... ذلك أنه مبحث يقول عنه العلامة الزرقانى :«إنه مخيف وشائك.. كثر فيه القيل والقال إلى حد كاد يطمس أنوار الحقيقة حتى استعصى فهمه على بعض العلماء، ولاذ بالفرار قائلا إنه من المشكل ، ثم يضيف :«إن الخطأ فيه يمهد السبيل لأعداء الإسلام فى توجيه المطاعن الخبيثة إلى القرآن».

ويحكى الزركشى عن ابن العربى أنه لم يأت فى معنى هذه السبع

نص ولا أثر .

وعن الحافظ ابن حبان البستى أن الناس اختلفوا فى ذلك على خمسة وثلاثين قولا .

ومازلت أكرر أنها رؤية أراها صوابا تحتمل الخطأ ، وأسأل الله أن يجنبنا الزلل، وأن يرزقنا الإخلاص فى القول والعمل .

إنه ولى ذلك والقادر عليه .

أ.د. محمد المختار محمد المهدى

نشأة اللغة الإنسانية

تمهيد :

هذا مبحث يبدو لأول وهلة أنه مما لا يضر الجهل به حيث يتعلق بأمر غيبي ليس في نصوص الوحي ما يحسمه ، غير أن ما يترتب عليه من فائدة لفهم ما أحاط بنزول القرآن الكريم على أحرف مختلفة يجعل له قيمة تستحق العناء في الوصول إليه .

وقداهتم بهذا البحث الأقدمون والمحدثون على سواء ، من المسلمين وغيرهم .

فمن الأقدمين من يقول : إن اللغة الإنسانية طريقها الوحي والإلهام، إعتمادا على قوله تعالى :

(وعلم آدم الأسماء كلها) . وقد أوضح هذا الرأى بشيء من التفصيل **ابن فارس** في كتابيه : **الصاحبي** ، **وفقه اللغة** .

وتحدث عنه طويلا **ابن جني** في كتابه : **الخصائص** .

ومنهم من يقول : إن الإنسان قد تعلم اللغة عن طريق المحاكاة ثم المواضعة والاصطلاح ، وقد تحدث عن هذا الرأي أيضا وأفاض في الحديث عنه **ابن جني** في كتابه الخصائص ، وبدا من كلامه أنه يرتضيه .

أما المحدثون فيقولون : إن اللغة ظاهرة إجتماعية خضعت في نشأتها وتطورها إلى قاعدة التطور العام على سبع مراحل :

المرحلة الأولى : مرحلة الأصوات الساذجة غير المكيفة التي تشبه

الأصوات الانبعاثية أو التلقائية التي تصدر عن الطفل في أول عهده بالنطق، فهي أصوات مبهمة لا تعين رغبة ، ولا تحدد غرضا .

المرحلة الثانية : مرحلة الأصوات المكيفة التي تشبه النغمات الموسيقية إلى حد ما ، وتنبئ عن الأغراض والرغبات بما يصحبها في الغالب من إشارات أو حركات متنوعة .

المرحلة الثالثة : مرحلة المقاطع التي تتكرر في الغالب ، وتظهر منها آثار المحاكاة لمافي الطبيعة من أصوات الأشياء والحيوانات كأن يقول الطفل : تك تك يريد الساعة ، نو نو يريد القط وهكذا .

المرحلة الرابعة : مرحلة الكلمات المكونة من مقاطع ، وهذه المرحلة هي التي حيرت الباحثين فسببها لديهم غير معروف ؛ إذ كون الإنسان كلمات من مقاطع يعبر بها عن أغراضه حين اكتملت قواه العقلية ، ونضجت أعضاء التكلم لديه . وعلى مر الزمن وتشعب نواحي الحياة نمت هذه الكلمات وكثر عددها حتى تكون منها لغة كافية للتعبير عن أغراض الإنسان المختلفة ، ومشاهداته المتعددة.

المرحلة الخامسة : مرحلة الوضع والاصطلاح المبتكر، وهذه مرحلة متقدمة من مراحل النمو اللغوى العادى حيث اضطر الإنسان إلى الوضع والاصطلاح لتنمية لغته حتى تفي بأغراضه المتزايدة وتتسع للتعبير عن تجاربه النامية المطردة .

المرحلة السادسة : مرحلة التقعيد والتقنين للمساعدة فى ضبط اللغة

والحفاظ على خلوها من الأخطاء فى صوغ الكلمات أو فى تكوين الجمل والأساليب .

المرحلة السابعة : مرحلة التنميق والتحسين ، وهي أرقى المراحل وتتمثل في تزيين الأسلوب بالمحسنات البلاغية : لفظية ومعنوية، واستعمال التشبيه والاستعارة والكناية والصور البلاغية المختلفة .

بعد ذلك يعن لنا سؤال آخر هو : **أواحدة كانت لغة الإنسان أو متعددة ؟**

والجواب عن هذا السؤال يتوقف على الإجابة عن سؤال آخر هو : **هل نشأ الإنسان أول ما نشأ في بقعة واحدة من الأرض** وكون أفراده جماعة واحدة بينها صلات وروابط في الدم والنسب والاجتماع ؟ أو أنه نشأ في جهات مختلفة من المعمورة وكون في كل جهة وحدة اجتماعية مستقلة ؟

ـ فإذا قلنا بالرأي الأول وهو ما أشارت إليه الأديان السماوية من أن أصل البشر هو آدم وحواء لزمنا القول بأن لغة الإنسان الأول كانت لغة واحدة ثم تفرعت منها اللغات المختلفة بتفرق النوع الإنساني وانقسامه إلى أجناس وشعوب انتشرت في الأرض وسكنت في بيئات مختلفة ، وكلما تقدم بها الزمن تطورت لغاتها وتفرعت حتى وصلت إلي ما هي عليه الآن .

ومن الأدلة التي اعتمد عليها أنصار هذا الرأي أن الطوفان الذي حدث في عهد نوح عليه السلام كان طوفانا عاما شمل سكان الأرض

جميعهم ، ولم يبق منهم إلا نوح وأولاده الثلاثة : سام ، حام ، يافث ، كما جاء في التوراة ، ويضيف القرآن الكريم إلى من نجوا من الطوفان من آمن بنوح عليه السلام من غير أهله حيث يقول سبحانه : ﴿قلنا يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك﴾ . ويقول : (اسلك فيها من كلٍّ زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن) وبناء على هذا كان الناجون في السفينة يتكلمون بلغة واحدة توارثها من تناسل منهم ، وحين تفرقوا نشأ لدى كل فريق منهم لغته الخاصة التى انحدرت من اللغة الأولى ، ثم تطورت على مر الزمن ، وبذلك نشأت المجموعات اللغوية الثلاث الكبرى : المجموعة السامية ، المجموعة الحامية ، والمجموعة اليافثية .

ـ أما أصحاب الرأي الثاني فإنهم يرفضون عمومية الطوفان ويتشككون في نصوص التوراة والقرآن .

وأشهر من قال بذلك : (ماكس مولر) العالم الألماني في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وتتصل نظرية القائلين بهذا الرأي بنظرية (شارلزدارون) الفيلسوف اليهودي في أن نشأة الإنسان قد تطورت من فصيلة القردة ..

من أجل ذلك نغمض الطرف عن هذا الرأي لظهور بطلانه .

ويأتي السؤال الأخير في هذه المنظومة التي تؤرخ للغة الإنسانية الأولى وتطورها وهو: **أين كان موطن الساميين ؟وأين رست سفينة نوح ؟**

وقد اختلفت آراء الباحثين المحدثين وتضاربت أفكارهم ، وأقرب

هذه الآراء إلى الحقيقة ما ذكره فريق من العلماء في أواخر القرن التاسع عشر وبرهنوا على صحته ببراهين تكاد تكون قاطعة .

وملخصه أن جزيرة العرب هي الموطن الأول للساميين الذين تجمعوا فيه قبل أن يهاجروا إلى الشمال والجنوب والشرق والغرب .وأول من قال بهذا الرأي مؤرخ إنجليزي اسمه (سايس) في كتابه عن قواعد اللغة الأشورية الذي ظهر سنة ١٨٦٢م إذ ورد فيه أن جميع التقاليد السامية تدل على أن جزيرة العرب هي الموطن الأول للساميين حيث لم يؤثر فيها أي نفوذ أجنبي يخرجها عن طابعها وطبيعتها ،كما أن مميزات الجنس السامي التي من أهمها قوة العقيدة الدينية ، والشجاعة الخلقية ، والمناعة الجسمية ، وقوة الخيال لابد أن يكون مصدرها الأصلي الصحراء.

ـ وفي ١٨٧٣م أعلن (شر يدر) الألماني هذا الرأي .

ـ وفي ١٨٧٥م نشر (شيرنجر) الألماني أيضا كتابا سماه (جغرافية بلاد العرب) أكد فيه هذا الرأى .

ـ وفي ١٨٨٢م ظهر رأي العالم الهولاندي (ديجويه)مؤيدا كذلك لهذا الرأي .

ومن الأسباب التي بنى هؤلاء رأيهم عليها :

١ـ أن التاريخ يقرر أن البابليين والأشوريين أصحاب الحضارة الراقية في العراق كانوا وافدين ، على هذه البلاد ، وأنهم أخضعوا

سكانها الأصليين وهم الشومريون .

٢ـ أنه عثر على نقوش باللغة الشومرية تفيد أن بلادهم كانت فى خطر دائم من إغارة قبائل سامية من جهة الغرب .

٣ـ يذكر التاريخ العصر الذي هاجر فيه الكنعانيون إلى بابل ومنها إلى كنعان ولم يذكر متى وصل الساميون إلى جزيرة العرب وجعلوها موطنا لهم [١] .

٤ـ المعقول أن سكان الصحاري والجبال المجدبة يطمحون دائما إلى التحضر وسكنى المدن والبلاد الخصبة ، وليس هناك مثل تاريخي يذكر عكس هذه النظرية .

٥ـ لغة سكان الجزيرة هي أقرب اللهجات إلى السامية الاولى حيث لم تتأثر بعناصر أجنبية غازية .

ويرى الأستاذ حامد عبد القادر عضو مجمع اللغة العربية ـ رحمه الله ـ في مذكراته التي كان يدرسها لنا في جامعة الأزهر وانتفعت بمعلوماته فيها ..أن لا مانع من هجرة الساميين إلى جزيرة العرب حين كانت خصبة تجري فيها الأنهار ، وتنمو فيها الزراعات والمراعي ، وأن لا مانع أيضا من فهم إشارة القرآن إلى مكان استواء سفينة نوح في قوله تعالى : (واستوت على الجودي)إلى أن جبل الجودي هو جبل (أرارات)

---

(١) سيأتى بعد ذلك رأى يحدد تاريخ وصول الساميين إلى جزيرة العرب بما بعد حادثة الطوفان حين كانت الجزيرة مروجا خضراء .

في أرمينيا .. وبهذا يمكن أن يقال : إن هذه البقعة قد ضاقت بسكانها ، فاضطر فريق منهم - يشمل الفصيلة السامية- إلى الرحيل طلبا للمراعي وأماكن الصيد والزراعة حتى وصلت إلى بلاد العرب .

وحول هذا الرأي يأتي إعجاز الإخبار من سيدنا رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم أن أرض العرب ستعود مروجا خضراء كما كانت من قبل ولهذا نقف خلف هذا الرأي مؤيدين ومقتنعين .

اللغة العربية واللغات السامية

تنتمي العربية إلى الفصيلة السامية ، وأول من استعمل هذه التسمية (سامية) لهذه الفصيلة العالم الألماني : شلوزر (١٧٧٥-١٨٠٩م) وسماها كذلك لأن معظم المتكلمين بها من نسل (سام بن نوح) كما ورد في الفصل العاشر من سفر التكوين ، وإن كانت هذه التسمية تنقصها الدقة العلمية ؛إذ ليست جامعة ولا مانعة،ولكن العلماء قبلوها على علاتها لشهرتها وسهولتها على اعتبار أنها مصطلح يدل على مجموعة متوافقة ومتقاربة من اللغات في موادها وتراكيبها .

- ويدخل في هذه الفصيلة خمس لغات رئيسية :

١- الأكادية وتشمل البابلية والأشورية .

٢- الآرامية وتشمل الشرقية والغربية .

٣- العربية وتشمل الجنوبية والشمالية .

٤ـ العبرية القديمة .

٥ـ الفينيقية .

وأضيف إليها حديثا الحبشية (الأثيوبية) .

وقد تفرعت عن هذه اللغات الخمس أو الست لهجات كثيرة لا تخرج عن القواعد الأساسية لهذه اللغات .

ـ وكان الموطن الأصلي لهذه الفصيلة اللغوية بقعة من الأرض في الجنوب الغربي من آسيا تمتد من البحر المتوسط غربا إلى حوض دجلة والفرات شرقا ، ومن جبال أرمينية شمالا إلى الساحل الجنوبي لجزيرة العرب جنوبا ، وتشمل هذه البقعة فلسطين وفينيقيا (لبنان) وسوريا ، بابل وأشور (العراق) وجزيرة العرب ، والحبشة .

هذا وقد نشأت البحوث اللغوية الخاصة بمقارنة اللغات السامية منذ القرن الخامس الهجري على يد أبي زكريا يحيى حيوج الذي كان معاصرا لبعض أئمة النحاة العرب وتأثر بهم وجعل قواعد النحو العربي اساسا لدراسة اللغة العبرية دراسة علمية ، وقد نمت هذه الدراسات في القر ن السابع عشر الميلادي وما بعده ، فشملت بحوثهم اللغات السامية. الخمس التي أشرنا إليها .. وبالمقارنة بينها تبين بالأدلة القاطعة أن اللهجات السامية انحدرت من لغة واحدة هي اللغة السامية الأم وأن تفرع هذه اللهجات عن أصلها يرجع إلى تفرق الساميين وانقسامهم إلى شعوب اختلفت بيئاتهم وتجاربهم ومشاهداتهم ، وأن توحيد البيئة وتقارب الثقافات يؤدي في الغالب إلى توحيد اللهجات المختلفة .

رأي جديد للباحث في نشأة اللغة يستند إلى القرآن

استنباطا مما سبق ، واعتمادا على القراءات الكثيرة في هذا المجال ...أرى أنه يمكن التوفيق بين التوقيفيين الذين يرون أن اللغة منزلة من عند الله تعالى كاملة ، وبين القائلين بحدوث اللغة وتطورها وتفرعها من الأصوات أو غيرها محتجين بأحوال الطفل الذي يتدرج فيها من المسموع إلى المحسوس إلى المعقول ...

وإبطالا لما رآه المحدثون من أن هناك مرحلة مفقودة من المراحل السبع السابقة نرى أن الاحتجاج بأحوال الطفل لا تقنع الباحث المنصف بأن البشرية قد بدأت لغتها من الصفر ، وأغلب الظن أن أصحاب هذا الرأي قد بنوه على أساس نظرية تطور وارتقاء الجنس البشري من فصيلة القرود كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

والتأمل في حجتهم نفسها يهدم هذا الإلحاد،فإن المشاهد أن الطفل يتعلم اللغة من غيره بالسماع فاللغة وليدة السماع بحيث إذا نشأ الطفل في بيئة عربية تعلم منها اللغة العربية ، وإذا نشأ في بيئة أخرى تتكلم الفرنسية مثلا نطق بالفرنسية ، وإذا حبس الطفل ومنع من الاختلاط والاستماع إلى الآخرين فإنه لن يتكلم ولن ينطق إلا بأصوات فارغة من المعنى .

ومن هنا نرى أن الطفل يسمع من أبيه ، وأن أباه قدسمع من جده، وأن السلسلة ظلت مستمرة إلى أبي البشرية ، فلولم يكن لدينا إيمان

بوجود الله فكيف نطق آدم دون أن يستمع من غيره ــ وبهذا يكون كلامنا في حد ذاته معجزة لغوية تدل على وجود الخالق وعلى تعليمه لأبينا آدم عليه السلام غير أني لا أري مانعا من تصور نشأة اللغة على النمط الآتي وإن لم أره نظرية متكاملة لأحد :

ـ خص الله تبارك وتعالى هذا الجنس البشري بالتكريم والتعليم وفضله على الملائكة الكرام في خلافة الأرض وتعميرها لما فطره عليه من قابلية الإستيعاب لما يلقى عليه ، وقابلية التعليم لغيره بعد أن يستوعب ويتعلم وقد تولى سبحانه وتعالى تعليمه اللغة التى بها يعرب عما في نفسه وينقل بها أحاسيسه ومشاعره إلى الآخرين ، فعلمه أسماء الكائنات التي سيعيش بينها على الأرض ، وأظهر فضله أمام ملائكته بأنه يمكن أن يعلم غيره حيث يقول : (ياآدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) .

ـ وقد ورّث آدم أولاده هذا القدر الذي تعلمه من ربه ،فكان الأساس الذي بنيت عليه لغات العالم كله ، ذلك أن أولاد آدم وأحفاده تفرقوا في بقاع الأرض واختلفت بيئاتهم واحتياجاتهم فاشتقوا من هذه الأسماء كلمات كون بها كل فريق لغة التخاطب في بيئته ، وكان هذا الاشتقاق من أسماء الأعيان كما بقي في لغتنا العربية حتى الأن من مثل قوله تعالى : (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه) أي يضربه في دماغه، وقد أجازه أخيرا مجمع اللغة بالقاهرة تنمية للغة واستنادا إلى

كثرة مـا ورد من ذلك . ولما كانت وسائل الاتصال في هذه الحـقبة الموغلة في القدم محدودة وبدائية لم يحدث التلاقي المؤثر في اتحاد ما ينطقون به، وتلك هي الحقيـقة التي توصل الباحثون إليـها حديثا كمـا سبق ، و كانت تلك آية من آيات الله التي امتن بها على خلقه حـيث قرن اختلاف الألسنة بإختـلاف الألوان باختلاف أنواع الخلق في السمـوات والأرض ، وجعل هذا الاختلاف مجـالا لوصول العلماء إلى عظمة الخالق فقـال سبحانه : (ومن آياته خلق السـموات والأرض واختـلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين) .

ولما كان اخـتلاف الألوان عائدا إلى عـاملين أساسـيين هما : البيـئة والوراثة بدليل سـواد البشرة فـيمن يسكن في المناطق الحـارة ، وبدليل ما ورد عن رسـول الله ﷺ حين شك رجل في امـرأته حين ولـدت له ولدا يختلف لونه عن لون أبيه فسأله النبي هل له من إبل ؟ فقال : نعم . فقال له : ما سبب ذلك ؟ قال العربي السائل : لعله نزعه عرق . فقال النبي ﷺ فلعل ابنـك هذا قـد نزعـه عـرق . ومـعنى ذلك أن الوراثة قـد تؤثر في الألوان. وكـذلك الألسنة تـعود إلـى هذين العـاملين : البيئة بما اقتـضت الأشتقاق من أسماء الأعـيان أولا ثم من أسماء المعاني ، والوراثة بما نقله أولاد آدم عن أبيـهم مما علمه الله إياه من أسـماء الأعـيان وبذلك ينحـسم الخلاف حـول نشأة اللغة الإنسانيـة بين المواضعة والتوقـيف ، وصدق الله العظيم:﴿ونزلنا عليك الكتـاب تبيـانا لكل شيء وهدى ورحمـة وبشرى للمسلمين ﴾.

العربية ولهجاتها

طبقا للنظرية السابقة في تفرع اللغة الإنسانية الأولى وفي تفرع اللغة السامية الأم كانت العربية خاضعة لهذا المقياس مع ملاحظة أن طبيعة الجزيرةالعربية أدت إلى نشأة النظام القبلي بكل ما يتميز به من تماسك بين أفراد القبيلة واعتزازهم بالانتساب إليها والدفاع عنها والحرص على تميز لغة التخاطب بين أفرادها ، وكلما تقاربت القبائل جغرافيا وتبودلت المنافع بينهم نرى أن لهجاتها تتشابه تبعا لهذا التقارب .

من هنا حين اعتزت كل قبيلة بلهجة خاصة ، وكلمات مميزة بكيفية متعارف عليها بين أفرادها كان -بحكم الطبيعة الإنسانية في احتياج الإنسان إلى أخيه الإنسان -أن تقاربت بعض اللهجات حتى اشتهر منها قبل الإسلام في المنطقة الشرقية لهجة تميم وأسد وقيس ، وفي المنطقة الغربية لغة الحجاز وتشمل لهجة المدينة وخيبر وفدك ومزينة وجهينة وقريش وبني بكر وبعض هوازن ومعظم سليم وهلال وما إلى ذلك ، وفي المنطقة الجنوبية لغة حمير .

ومن رحمة الله ومعونته أن جعل الكعبة المشرفة في مكة مثابة للناس وأمنا فكان الجميع يفيئون إليها في مواسم الحج ويختلطون ويتعاملون،مما نشأ عن هذا فكرة الأسواق في أماكن المناسك للترويج للسلع التجارية أولا ثم إلى التفاخر والمديح بالشعر والخطابة ثانيا .

ولما كانت قريش هي سادنة البيت الحرام وهي القائمة بخدمة الحجاج وهي من الحصافة بحيث أدخلت في لغتها كثيرا من كلمات

اللهجات الأخرى مما أثرى لغتها، ويسّر على القبائل الأخرى استساغتها ...اقتضى ذلك ذيوع لغتها وسيادتها ، وكانت أسواق **عكاظ ومجنّة وذي المجاز في أشهر الحج الثلاثة** ميدانا ثقافيا رائعا يتحدث الأدباء والشعراء فيه باللغة الفصحى المفهومة لدى جميع القبائل وهي لغة قريش ، وكان ذلك تمهيدا ربانيا لنزول القرآن بهذه اللغة المشتركة .

علاقة اللهجات بالأحرف السبعة

نزل القران الكريم على رسول الله ﷺ بمكة على لغة قريش ولم يجد النبي صعوبة في بيان معاني ما ينزل في فترة تنزله الأولى على أهل مكة وما جاورها . بل أخذ القرآن بمجامع أفئدتهم وأذهلهم بفصاحته وبراعة أساليبه وعلوّ مكانته حتى قال قائلهم : إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولايعلى عليه .

بل وصل ببعضهم الأمر إلى أن وصفوه بالسحر والكهانة لتأثيره الشديد في النفوس وعجزهم عن مجاراته وتحديه فإن من البيان لسحرا . ولم يصل إلى علمنا أن أحدا من سكان مكة سأل النبي ﷺ عن معنى كلمة أو عن مدلول آية في هذه الفترة .. فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة وكان سكانها من الأوس والخزرج وهما قبيلتان يمنيتان متأثرتان بلهجة الجنوب ظهرت الحاجة إلى الاستفسار عن بعض ما نزل من كتاب الله مما ليس في لغتهم ، ثم إن نطق قريش لكلمات اللغة يختلف في أدائه عن نطق أهل المدينة وهنا طلب رسول الله ﷺ أن يخفف عن الأمة،من حيث إن تغيير العادات اللغوية من أصعب الأمور وبخاصة على الشيوخ

الذين دربت ألسنتهم على طريقة خاصة في نطق الكلمات من ترقيق وتفخيم وإمالة وتسهيل للهمزات وما إلى ذلك فاستجاب الله لرسوله ونزل القرآن على حرف آخر،وما زال النبي يستزيد ربه من التخفيف بعد أن دخلت وفود من القبائل في حظيرة الإسلام ، -إذ يريد الجميع أن يتلوا القرآن كما أنزله الله حتى ينالوا ثواب قراءته- حتى وصل العدد إلى سبعة أحرف . روى مسلم في صحيحه عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ كان عند أضاة بني غفار (وهي منطقة فيها بئر لهذه القبيلة في المدينة المنورة) فأتاه جبريل عليه السلام فقال : (إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف) فقال : (أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك) ثم أتاه الثانية فقال: (إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين) . فقال : (أسأل الله معافاته ومغفرته وإن امتي لا تطيق ذلك) ثم جاءالثالثة فقال : (إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف) . فقال: (أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك). ثم جاء الرابعة فقال : (إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيّما حرف قرأوا عليه أصابوا).

معنى الأحرف السبعة

من ضروريات المعرفة لكتاب الله أن يحيط المسلم علما بمعنى الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن الكريم حتى يحصل على حصانة وزاد يتأبي على الشبهات التي قد يثيرها الجهل بثوابت هذا الكتاب الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) .

وقد خاض في تفسير معنى الأحرف السبعة كثير من العلماء كما أشرنا إلى ذلك في مقدمة هذا البحث ، بالرغم من أن الأحاديث التي صرحت بهذه الحقيقة قد رويت عن جمع كبير من الصحابة منهم أبو بكر وعمر وعثمان وابن مسعود وابن عباس وأبو هريرة وأبو سعيد الخدري ، وأبي بن كعب وعبد الرحمن بن عوف وعمرو بن العاص ومعاذ بن جبل وهشام بن حكيم وأنس وغيرهم ، وقد استشهد عثمان صحابة رسول الله وهو على المنبر بما سمعوه من رسول الله ﷺ عن نزول القرآن على سبعة أحرف فقاموا حتى لم يحصوا عددا وشهدوا جميعا بأنهم سمعوا رسول الله يقول ذلك . ولا يعقل أن يروي هذا الجمع عن رسول الله ﷺ هذا الحديث وهم لايعرفون مدلوله ، وإلا كان لهم أن يسألوا رسول الله ﷺ عن معناه كما حدث منهم ذلك كثيرا في تفسير ما غمض عليهم من كتاب الله ، ومن هنا وجب الرجوع إلى معاني الحرف المستعملة في لغتهم.

وقد اختار الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى في كتابه (مناهل العرفان) تفسير الحرف بالوجه واختار على اساسه مذهب الإمام أبي

الفضل الرازي في أن الاختلافات في هذه الأحرف لا تخرج عن سبعة أوجه هي :

١ـ اختلاف الأسماء من إفراد وتثنية وجمع وتذكير وتأنيث

٢ـ اختلاف الأفعال في تصريفها بين الماضي والمضارع والأمر

٣ـ اختلاف وجوه الإعراب

٤ـ اختلاف اللهجات في الأداء بالفتح والإمالة والترقيق والتفخيم وما إلى ذلك

٥ـ الاختلاف بالنقص والزيادة .

٦ـ الاختلاف بالتقديم والتأخير .

٧ـ الاختلاف بالإبدال .

غير أنه عقب على ذلك بأن النقل لم يشفع لهذا التفسير بتمثيل لهذه الأوجه ، ثم بدأ يجتهد هو في التمثيل لها ، واعترض بعد ذلك على بقية الأراء والمذاهب .

ولهذا كان لابد لنا من الرجوع إلى بقية المعاني الواردة للحرف في هذه اللغة التى نزل بها كتاب الله وتحدث بها رسول الله فوجدنا أن هناك معنيين رئيسيين للحرف هما :

المعنى الأول : طرف الشيء الذي ينتهي إليه كحرف الجبل ، وعلى هذا المعنى ورد قوله تعالى : (ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن اصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين) .

والمعنى الثاني : جزء الكلمة من حيث إن كل كلمة تتكون من عدة أحرف .

فأما المعنى الأول وهو طرف الشيء فإن طرف الإنسان لسانه ، ويشمل ذلك طريقة النطق والأداء وما يسمى في علم القراءات بالأصول كتخفيف الهمزة وتحقيقها وتفخيم اللام والراء وترقيقهما،وإدغام المثلين والمتقاربين وفكهما،ومد حروف العلة وقصرها،وإمالة بعض الألفات وفتحها وتقليلها،وكل هذه الأحوال داخلة في كيفية النطق باللسان وهو حرف الإنسان وطرفه .

وأما المعنى الثاني وهو جزء الكلمة العربية فمن استعمالات العرب المجازية إطلاقهم لفظ الجزء على الكل كما ورد في كثير من الأساليب الفصحى كقوله ﷺ : (اليد العليا خير من اليد السفلى) . والمراد أن المرء الكريم السخي خير من الفقير الآخذ ، فأطلق اليد وأراد بها الشخص كله ومن هنا تسمى الكلمة حرفا بل قد تسمى اللغة نفسها حرفا .

من هنا نجد في الأحرف السبعة كلمات من لهجات مختلفة يتفق لفظها ويختلف معناها ، وكلمات أخرى يتفق معناها ويختلف لفظها ، وكلمات تختلف حركاتها ولا تتغير في صورتها ومعناها .

وإذا اردنا التمثيل لهذه الأنواع فإن مثال النوع الأول وهو اتفاق اللفظ واختلاف المعنى :

ـ ما ورد في كتاب الله عزوجل في استعمال كلمة الفتح في معني فتح الأبواب وفتح الأمصار في مثل قوله تعالى : ﴿ما يفتح الله للناس من

رحمة فلا ممسك لها ﴾ . وقوله : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾.وقوله : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض). وقوله (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) . كما استعمل القرآن هذا اللفظ في معنى آخر يسود في جنوب الجزيرة العربية في لغة اليمن ، وهذا المعنى هو ماعبر عنه سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما حينما قال : لم أعرف معنى قوله تعالى : ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ حتىَ سمعت ابنة ذي يزن وهي تقول لخصمها : تعال أفاتحك ، ففهمت أن معناه عندهم هو الحكم، وقد نزل به القرآن في هذه الآية ، وصار المعنى واضحا : ربنا احكم بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الحاكمين .

كما استعمله القرآن ايضا في سورة السجدة في قوله تعالى : ﴿ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولاهم ينظرون ﴾ ذلك أن الكافرين لا يسألون عن يوم النصر إنما يسألون عن يوم الجزاء والفصل والحكم بدليل ما قبل تلك الأية (إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) .

ومن ذلك أيضا لفظ اليأس بمعنى القنوط وقطع الرجاء في مثل قوله تعالى : (أولئك يئسوا من رحمتي) وقوله تعالى : (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) .

وبمعنى العلم في قوله تعالى : ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا﴾ على لغة هوازن .

أما مثال النوع الثاني وهو اتفاق المعنى واختلاف اللفظ فكما صح من قراءة النبي ﷺ قوله تعالى : (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) بلفظ العهن مرة وقراءتها أيضا بلفظ الصوف : (وتكون الجبال كالصوف المنفوش) .واللفظان مختلفان في الصورة متفقان في المعنى .

وكذلك قراءة قوله تعالى : ﴿ إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ﴾قرئت هكذا : ﴿ إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فامضوا إلى ذكر الله ﴾ . وبين اللفظين :«فاسعوا وامضوا» تقارب في المعنى واختلاف في اللفظ .

وكذلك في قوله تعالى في سورة الفاتحة : ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ قرئت : ﴿غير المغضوب عليهم وغير الضالين ﴾ . فكلمتا (غير) و(لا) مختلفتان في اللفظ متفقتان في المعنى .

ومن أمثلة النوع الثالث : وهو اختلاف اللفظين في الحركات مع اتفاق المعنى والصورة فكقراءة قوله تعالى : (أيحسب أن لن يقدر عليه أحد)بكسر السين وفتحها . والمعنى والصورة واحد .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ ولا يحزنك قولهم ﴾ بضم الزاي وفتح الياءقرئت بضم الياء وكسر الزاي والمعنى والصورة واحد .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ﴾ قرئت اللفظة الأولى (فيقتلون) بضم الياء وفتح التاء ، والثانية (ويقتلون) بفتح الياء وضم التاء ..كما قرئتا بالعكس واختلاف الحركات يجعل كلا

منهما مبنيا للمعلوم أو المجهول والمعنى واللفظ في القراءتين واحد .

بهذا نستطيع أن نفهم كيف كان رسول الله ﷺ يخاطب ويعلم ويقرىء أصحابه كتاب ربهم بلغتهم ولهجتهم من منطلق أن الله تعالى قد علمه من فضله لهجات العرب ولغاتها مما يشمله قوله تعالى : ﴿ وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ ومن منطلق قول علي بن أبي طالب لرسول الله حين رآه يكلم كل وفد من وفود العرب بلغته مما لا يفهمه علي فيقول : لقد نشأنا يارسول الله في بيت واحد وأراك تكلم الناس بما لاأفهم فمن علمك ؟ فقال : (علمني ربي فأحسن تعليمي) .

ومن هنا نفهم أيضا كيف أقرأ النبي ﷺ سيدنا عمر بن الخطاب وهو في مكة سورة الفرقان على لغة قريش ولهجاتها ، ثم أقرأها لسيدنا هشام بن حكيم بن حزام بعد الفتح على غير هذه اللهجة مع أنهما قرشيان فقد روى الإمام البخارى والإمام مسلم في صحيحيهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأها على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ فكدت أساوره في الصلاة فانتظرته حتى سلم ثم لببته بردائه فقلت : من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ فقلت له : كذبت فوالله إن رسول الله ﷺ أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرؤها ، فانطلقت أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها وأنت أقرأتني سورة الفرقان ؟ فقال رسول الله ﷺ :(أرسله

يا عمر ، اقرأ يا هشام) فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرؤها ، فقال رسول الله ﷺ : (هكذا أنزلت) . ثم قال ﷺ : (أقرأ يا عمر) فقرأت القراءة التي أقرأني فقال رسول الله ﷺ : (كذلك أنزلت. إن هذا القرآن أنزله الله على سبعة أحرف فأقرأوا ما تيسر منه).

أين الأحرف السبعة الآن ؟

لم يكن التمثيل السابق للأحرف في طرق الأداء وفي اختلاف الكلمات شاملا لكل الأحرف السبعة ذلك أنه في العرضة الأخيرة في العام الأخير لحياة رسول الله ﷺ والتي حضرها سيدنا زيد بن ثابت مع سيدنا جبريل في شهر رمضان نسخت بعض هذه الأحرف ، وحين قرأ أبي بن كعب بكل ما سمع احتج عليه عمر بآية النسخ ، وحين كتب المصحف في عهد سيدنا عثمان عهد إلى أربعة ممن كانوا يجيدون الكتابة ليسجلوا ما يتفق عليه الصحابة الذين كانوا في المدينة حينذاك وكان عددهم اثنى عشر ألف صحابي إذ كانت الآية تتلى عليهم من المكتوبات المجموعة من كتّاب الوحي والتي كتبت أمام رسول الله ﷺ فإذا أقروا كيفية أدائها كتبت في المصاحف دون شكل أو نقط ، فبقي من الأحرف ما يحتمله الخط وحذف منها ما اختلفت فيه الكلمات .

وعلى ذلك لا داعي للتركيز الآن على عدد الأحرف كما فعل الرازي واختاره الزرقاني ، فما ورد في القراءات سواء كانت سبعية أم عشرية أم شاذة هي بقايا هذه الأحرف وليست كل الأحرف ، وليست القراءات السبع هى الأحرف السبعة كما يتوهم العوام .

مفهوم القراءات السبع والعشر

من الموثق بالنصوص ووقائع الأحداث أن النبي ﷺ كانت تنزل عليه الآيات من كتاب الله فيتعجل في تكريرها وتلاوتها فور سماعها من سيدنا جبريل خوف تفلت كلمة أو نسيانها فنزل قوله تعالى : (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه) . وكان ﷺ يستدعي كتبة الوحي ويملي عليهم ما نزل عليه توثيقا للنص بهذه الكتابة ، ثم يتلو في صلاته ما نزل عليه ويكررما يتلوه على مسامع أصحابه حتى يحفظوه ، ثم ينطلق أصحابه إلى بيوتهم يتلون ما سمعوه على مسامع أولادهم وزوجاتهم ، وبهذا وذاك حفظ القرآن في الصدور وفي السطور ، فلما خفف الله عن الأمة وأنزل كتابه في المدينة على سبعة أحرف كما سبق .. تعلم كثير من الصحابة من رسول الله ﷺ تلاوة هذا الكتاب كلٌّ على حسب لغته وطريقته في الأداء.

وكان من دأب رسول الله ﷺ وعادته المستمرة أن يحتفي بالقرآن في شهر رمضان فيدارس جبريل فيه في كل عام حتى إذا كان العام الأخير تدارسه معه مرتين وكانت هذه المدارسة هي العرضة الأخيرة التي نسخ الله فيها ما أراد نسخه مما نزل .

وبعد انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى- وانطلقت جنود الإسلام تشيع النور والهدي في جنبات الأرض ، وسار مع هؤلاء الجنود حفظة القرآن يرتلونه على مسامع الشعوب في مختلف الأمصار ، وكان كلّ قارىء يتلوه على نسق ما سمعه وقرأه على رسول الله ﷺ ، ولم يكن

هؤلاء القراءمن قبيلة واحدة - فاختلفت القراءة في الأمصار باختلاف القراء، واستمر ذلك في عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ولم يحدث خلالهما نزاع بين هؤلأ القراء فكلهم ملتزم بما ذكره المصطفى ﷺ :(فأيما حرف قرأو ا عليه أصابوا).

وكان من هؤلأ الصحابة الذين انتشروا في الأمصار أبو الدرداء بدمشق واستمر فيها حنى سنة ٣٢هـ وعبادة بن الصامت بحمص ، ومعاذ بن جبل بفلسطين ، وعبد الله بن مسعود بالكوفة حتى سنة ٣٠ هـ وأبوموسى الأشعري بالبصرة حتى سنة ٤٠هـ ومما يدل على إقبال الجماهير على حفظ كتاب الله أن حلقة أبي الدرداء كانت تضم «١٦٠٠» ألفا وستمائة دارس .

وفي عهد عثمان انطلقت جيوش الإسلام إلى شرق آسيا والتقت هناك جنود من كل الأمصار المفتوحة ، وكان من تقاليد هؤلاء الجيوش أن يؤمهم قائد واحد في كل صلاة ، فاستمع الجنود إلى قراءات للنص القرآني لم يألفوها فحدث النزاع الذي خرج على إثره حذيفة بن اليمان إلى أمير المؤمنين عثمان ليقول له : أدرك هذه الأمة حتى لايختلفوا على القرآن كما اختلف اليهود والنصاري ، وهنا نهض سيدنا عثمان بمهمة جليلة في توحيد الأمة على مصحف واحد يجتمع عليه أشهر الحفاظ والقراء ، واستعان في ذلك بالمكتوب أمام رسول الله ﷺ وبسيدنا زيد بن ثابت وضم إليه ثلاثة من أمهر الكتاب ورسم لهم منهج التوثيق كما سبق .

وكان من فطنة سيدنا عثمان أن يرسل مع كل مصحف قارئا يجيد لهجة المدينة المرسل إليها حتى لا يجبر الناس على تغيير ماألفوه من قراءتهم للقرآن ، فأرسل زيد بن ثابت إلى **المدينة** مع مصحفها ، وعبد الله بن السائب المخزومي إلى **مكة** ، والمغيرة بن شهاب إلى **الشام** ، وأبو عبد الرحمن السلمي إلى **الكوفة** ، وعامر بن عبد قيس إلى **البصرة**.

بناء على هذا أجاد بعض المتلقين عن هؤلاء الذين أرسلهم سيدنا عثمان مع المصاحف واشتهروا بحسن التلاوة وجودة الحفظ وتقوى القلب والخشية من الرب والسلوك الأمثل لحامل القرآن ، وصاروا أهلا لثقة الأمة يرسلون أبناءهم ليتعلموا على أيديهم كتاب الله .

واستمر الحال على ذلك إلى أن ظهر في القرن الرابع الهجري بدعة القراءة حسبما يمليه الخط ولولم يثبت تواترها عن رسول الله على يد **ابن مقسم**، وبدعة القراءة حسبما يثبت عن سيدنا محمد رسول الله ﷺ بصرف النظر عن موافقته للرسم العثمانى على يد **ابن شنبوذ** .وكانت فتنة اجتمع من أجلها علماء الأمة وقراؤها بقيادة الإمام **أبي بكر بن مجاهد** فاختاروا سبعة قراء من أوثق الحفظة لكتاب الله من مختلف الأمصار منهم خمسة من التابعين هم :

١ـ عبد الله بن عامر المتوفى سنة ١١٨هـ تعلم على أبي الدرداء ومعاوية بالشام ، وراوياه : هشام وابن ذكوان .

٢ـ عاصم بن أبي النجود المتوفى سنة ١٢٧هـ وقد أخذ عن زر بن حبيش وأبى عبد الرحمن السلمى بالكوفة وأقرأ الخليل بن أحمد وحمزة

وأبا عمرو بن العلاء ، وراوياه : حفص وشعبة.

٣ـ حمزة بن حبيب الزيات المتوفى سنة ١٥٦هـ قرأ على الأعمش وحمران بن أعين وجعفر الصادق واختار قراءة حمران عن ابن مسعود وروى عنه سليم بن عيسى والكسائى ، راوياه خلف وخلاد .

٤ـ أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤هـ ليس في السبعة أكثر شيوخا منه ، قرأ بمكة والمدينة والكوفة والبصرة . سمع من أنس بن مالك وقرأ على الحسن بن على وسعيد بن جبير وعاصم وعبد الله بن اسحق وابن كثير ونصر بن عاصم وقرأ عليه سيبويه ، راوياه الدوري والسوسي.

٥ ـ عبد الله بن كثير المتوفى سنة ١٢٠هـ من قبيلة تميم الداري وكان عطارا بمكة أخذ عن أنس بن مالك وابن الزبير وأبي أيوب الأنصاري ، وهو شيخ للخليل ،وعيسى بن عمر،وأبي عمرو . راوياه البزي وقنبل .

ومن غير التابعين :

٦ـ نافع بن أبي نعيم كان أسود اللون صبيح الوجه فيه دعابة ، قرأ على الزهري والأعرج وأبي جعفر ، وقرأ عليه مالك والأصمعي وورش، وهو قارىء المدينة المنورة وتوفي سنة ١٦٩هـ . راوياه : ورش المصري ، وربيبه قالون .

٧ـ الكسائي على بن حمزة بن عبد الله النحوي المتوفي سنة ١٨٩هـ قارىء الكوفة.قال فيه الشافعي : من أراد أن يتبحر في النحو فهو عيال على الكسائي ، وكان أوحدهم في القرآن ، أخذ عنه حفص ، وخلف

ويعقوب ، راوياه : الليث ، الدوري .

ووضع هؤلاء العلماء شروطا ثلاثة لقبول القراءة هي : تواتر السند إلى رسول الله ، وموافقة أحد مصاحف سيدنا عثمان ، وموافقة العربية ولو بغير الوجه الأفصح ..ولنا مع هذا الشرط تحفظ فما دام السند متصلا برسول الله فهو موافق قطعا لنسق العربية لأن القرآن ما نزل إلا بلسان عربي مبين .

وقد رأى من أتى بعد ابن مجاهد من العلماء أن هذه الشروط متحققة في قراءة ثلاثة من الحفظة الورعين وهم .

٨ ـ أبو جعفر يزيد بن القعقاع التابعي المتوفى سنة ١٣٠هـ قرأ على ابن عباس وأبي هريرة عن أبي بن كعب ، روي عن نافع وغيره . راوياه عيسى بن وردان ، وابن جماز ، وهو قارئ بالمدينة .

٩ ـ يعقوب بن إسحاق بن إسحق بن زيد بن عبد الله الحضرمي المصري المتوفى سنة ٢٠٥هـ قال عنه ابن الجزري : لا فرق بينه وبين السبعة. راوياه : روح ، ورويس .

١٠ـ خلف بن هشام البزار البغدادي المتوفى سنة ٢٢٩ه هو راوي حمزة وله قراءة مستقلة ، قرأ ابن مجاهد على ادريس عن خلف سماعا ، راوياه إسحق ، ادريس .

ثم أجمعت الأمة على أن هذه القراءات السبع أو العشر ما هي إلا كيفيات لأداء كلمات القرآن واختلافها منسوبة إلى ناقلها ، وليست هي الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن ، وأن اتفاق العدد في القراءات

السبع والأحرف السبعة هو الذى ألبس على بعض الناس أنهما حقيقة واحدة،فابن مجاهد كما سبق هو الذي حدد السبعة وزاد عليها من بعده ثلاثة ، أما الأحرف السبعة فالذي حددها رب العزة وأخبر بها نبيه وعلمها النبي لأصحابه ونسخ منها ما أراد الله نسخه وبقي منها ما اتفق مع رسم المصحف العثماني ، والهدف منها هو التيسير على الأمة مصداقا لقوله تعالى : ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ .

القراءات الشاذة ودرء شبهة المستشرقين

كل ماخرج عن هذه الضوابط التى وضعها ابن مجاهد ، وكل من عدا هؤلاء القراء العشرة يعد من القراء الشواذ كما إذا خالفت القراءة رسم المصحف العثماني ولو كانت ثابتة الرواية بالتواتر أو كانت موافقة للرسم ولكن ثبوتها عن رسول الله كان بطريق الآحاد ، أو كانت مخالفة للرسم مع ثبوتها بالآحاد . وقد بلغت هذه القراءات أكثر من أربعين قراءة اشتهر منها أربع هي :

١ـ قراءة الحسن البصري التابعي المتوفى سنة ١١٠هـ وكان زاهدا ورعا .

٢ـ محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن محيصن المتوفى ١٢٣هـ وكان شيخا لأبي عمرو .

٣ - يحيى بن المبارك اليزيدي النحوي من بغداد أخذ عن أبي عمرو وحمزة وكان شيخا للدوري والسوسي وتوفي سنة ٢٠٢ ه

٤ـ سليمان بن مهران الأسدي بالولاء ولقبه الأعمش وهو من التابعين توفي سنة ١٤٨ هـ.

وقد اشتملت القراءات الشاذة على بعض الأحرف السبعة لأن بعض الصحابة الذين تلقوا عن رسول الله ﷺ بلهجتهم الخاصة وأجازهم عليها كانوا قد كتبوا لأنفسهم مصاحف بها كلمات غير سائدة في لغة قريش .وحين جمع سيدنا عثمان الناس على مصحف واحد وأصدر أمره إلى الكتبة أن يختاروا لفظ قريش إذا اختلفوا لأنه نزل أولا بلغتها احتفظ بعض هؤلاء الصحابة بمصاحفهم ، ومنها مصحف ابن مسعود الذي ضمنه تفسيرا لبعض الألفاظ مما سمي في الشواذ بالمدرج ، وقد دعا ذلك سيدنا عثمان أن يأمر بإحراق هذا المصحف حتى لايظن الناس أن ما به من تفسيرات جزءا من نص القرآن ، كما أمر بإحراق ما عدا المصاحف التى نسخت في عهده وأجمعت عليها الأمة ، وكان منها مصحف أبي ابن كعب .

ومع هذا ظل بعض الناس يحفظون الكلمات التي كانت في هذه المصاحف التي أحرقت مما يعد من بقايا الأحرف السبعة .

فرية مردودة:

وقد ظن بعض المستشرقين أن اختلاف القراء راجع إلى طبيعة الخط العربي الذي كان حينذاك خلوا من النقط والشكل ، وجهلوا حقيقة هامة واضحة على مدى التاريخ الإسلامي كله وهي أن الأساس في تلاوة القرآن لم يعتمد يوما على ما كتب في المصاحف فقط بل ظل الاعتماد

ومنذ وجود الرسول ﷺ على الرواية والسند والإقراء والتلقي من حيث ان النبي نفسه قد تلقاها عن جبريل عن رب العزة سبحانه . قال تعالى : (وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم خبير) وقد تلقاها شفويا عن رسول الله صحابته وعن الصحابة تلقى التابعون ، وتوالى ذلك جيلا بعد جيل.يتفق الجميع على أن القراءة سنة متبعة خلفا عن سلف .

أما خلو الخط من الشكل والنقط في مصاحف عثمان فهو الذي أتاح للأمة أن تعتمد من الأحرف ما وافق هذا الرسم :

فما كان السبب في قراءة قوله تعالى : ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ﴾ على وجه آخر هو : ﴿وهو الذي يرسل الرياح نشرا بين يدي رحمته ﴾ لم يكن هذا الخلاف راجعا إلى خلو اللفظ من النقط مما يحتمل قراءته بالوجهين ولكنها الرواية والسند والتلقي.

وكذلك قراءة : (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينو ا) على لفظ آخر هو(فتثبتوا) لم يكن الخط هو الأساس ولكنه التلقي كذلك] والدليل على ذلك أن الأصمعي سأل أبا عمرو بن العلاء وهو أحد القراء السبعة عن لفظين متماثلين في الرسم في سورة الصافات ، وتقرأ كل منهما على خلاف الآخر وذلك قوله تعالى عن سيدنا إبراهيم : ﴿وتركنا عليه في الآخرين ﴾ وقوله بعدها عنه أيضا :﴿ وباركنا عليه وعلى إسحق ﴾. فقد كتبت : تركنا وبركنا برسم واحد خال من النقط ومن الألف . قال الأصمعي : كيف يعرف نطقهما وهما في مصحف عثمان بهيئة واحدة فأجابه أبو عمرو : ما يعرف ذلك إلا بالسماع من المشايخ الأولين .

وهكذا كانت عناية العلماء والقراء في ضبط التلاوة والحفاظ على الأداء كما بلغه رسول الله ﷺ ، وماذاك إلا من توفيق الله وحفظه وصدق الله العظيم : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ .

وهذا النوع من القراءات كما قال ابن جني نازع بالشقة إلى قرائه محفوف بالروايات من أمامه وورائه ، فالشذوذ لا يعنى الضعف ولكن معظمه روي عن رسول الله بطريق الآحاد .

ومما يدل على دقة الرواة القراء في التزامهم بالنقل المتواتر أن كثيرا من القراءات الشاذة متفقة مع الرسم العثماني ومعانيها سليمة من الناحية الشرعية لكنها غير متواترة ، ومن أمثلة ذلك قراءة الضحاك في آية السحر : (وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت) . حيث قرأ لفظ الملكين بكسر اللام ، ومعروف أن الرسم العثماني ليس فيه ضبط بالشكل لكن لأن القراءة لا تثبت إلا بالتلقي والتواتر حكم القراء على هذه القراءة بالشذوذ ومع ذلك أخذ منها المفسرون المحققون أن هاروت وماروت كانا من البشر وكانا متميزين بالسلوك الأنبل بين الناس حتى أطلقوا عليهما مجازا أنهما ملَكان .

ومنها قراءة أبي الأسود الدؤلي قوله تعالى :(ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) قرأها (أوتنسها) ناسبا النسيان إلى النبي ﷺ ، وبالرغم من أن المعنى واحد وان الرسم واحد إذ من البدهي أن النبي ﷺ لا ينسى شيئاً من القرآن إلا بإرادة الله كما قال سبحانه: ﴿ سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله ﴾ وبالرغم من ذلك ومن موافقتها للعربية

الفصحى نرى العلماء قد حكموا عليها بالشذوذ لأنها غير متواترة .

ومثلها قراءة أبي بن كعب :(إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي) حيث قرأها :(إما تأتينكم) بالتاء مراعاة لصيغة الجمع ، وهي متفقة أيضا معنى ورسما ولغة لكنها غير متواترة . ومن هذه القراءات قراءة أبي موسى الأشعري قوله تعالى : (ولا تنسوا الفضل بينكم) حيث قراها : ولاتناسوا الفضل بينكم ، وتضيف القراءة معنى التظاهر بالنسيان مع تذكر الفضل .

ومن هذه القراءات الشاذة مايطلق عليه مصطلح (المدرج) وقد سبقت الإشارة إليه ، وهذا النوع مما يفسر بعض الأحكام الشرعية كقراءة سعد بن أبي وقاص قوله تعالى :﴿ وإن كان رجل يورث كلالة أو امراة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس ﴾ زادت قراءة سعد بعد قوله: وله أخ أو أخت لفظ (من أمه) بيانا لصلة الأخوة في هذه الآية حتى لا يفهم أنها أخوة الآباء أو الأشقاء .ومثله قراءة ابن شنبوذ في قصة أصحاب السفينة : وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة (صالحة) غصبا . فأدرج وصف السفينة بأنها صالحة توضيحا لسلوك هذا الملك الظالم ، وهذا المعنى مفهوم من خرق الرجل الصالح للسفينة في قوله : ﴿ فأردت أن أعيبها ﴾.

على أن بعض هذه القراءات الشاذه أثارت جدلا بين الفقهاء حيث اعتمدها بعضهم دليلا على حكم شرعي من منطلق أنها ثابتة عن رسول الله بطريق الآحاد فتستوي من حيث الاستنباط مع الأحاديث النبوية ،

ورفضها البعض على أساس أنها نسخت في العرضة الأخيرة للقرآن من جبريل في آخر عام عاشه النبي ﷺ ، وما دامت نسخت تلاوتها فقد نسخ حكمها .

ومثال ذلك قراءةعبد الله بن مسعود في آية الكفارة لحنث اليمين وهي قوله تعالى : ﴿ فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ﴾ زاد ابن مسعود في قراءته لفظ (متتابعات) وترتب على ذلك أن بعض الفقهاء يعتمدون شرط التتابع ، والبعض الآخر يعتمد إطلاق اللفظ المتواتر الثابت في المصاحف العثمانية فلا يوجب تتابع الصيام لهذه الأيام .

وهكذا يتبين أن مجال القراءات فيه كثير من الفوائد الشرعية والمعنوية وأنها منضبطة بقواعد ثابتة مما يجعلنا نقول عن ثقة: إنه لا ضرر على النص القرآني من وجود هذه القراءات ودراستها، فالقرآن محفوظ بحفظ الله تبارك وتعالى .

القراءات واللهجات

مما يعضد ما رجحناه في فهم الأحرف السبعة أن القراءات الواردة سواء منها المتواتروالشاذ قد جرت على لهجات العرب المختلفة في صيغة الكلمة وفي أدائها الصوتي ، وليس المجال هنا للإحصاء والحصر ولكنه التمثيل بما يفي بالدليل :

- قرأ الأعمش : (فظلوا فيه يعرجون) بكسر الراء على لغة **هذيل**.

- قرأ الأعمش وعلقمة : (هذه بضاعتنا ردت إلينا) بكسر الراء علىَ لغة **بني ضبة** .

ـ قرأ عاصم الجحدري وعيسى بن عمر : (فمن تبع هديّ فلا خوف عليهم) بإدغام الألف في ياء المتكلم على لغة **هذيل** وكذلك : (يا بشرىّ هذا غلام) .

ـ قرأ الأعمش : (وجعل على بصره غشاوة) بفتح الغين على لغة **ربيعة** وقرأ الحسن وعكرمة بضم الغين على لغة **عكل** ، والقراءة بكسرها على لغة **الحجاز** .

ـ قرأ حمزة والكسائي (فلإمه الثلث) بكسر الهمزة وهي لغة **هذيل وهوازن** .

ـ قرأ ابن كثير : (إن الله لا يستحي) بياء واحدة في رواية شبل وكذلك يعقوب وهي لغة **بني تميم** .

ـ قرأ حمزة والكسائي وغيرهما : (وجبرئيل) كعنتريس على لغة **تميم وقيس** .

ـ قرأ نافع وابن عامر : (من يرتدد منكم عن دينه) بفك المثلين على لغة **الحجاز** وقرأ الباقون بالتشديد على لغة **تميم** .

ـ قرأ الأعرج : (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى) بفتح الكاف على لغة **تميم وأسد** .

ـ قرئ : (فنظرة إلى ميسرة) بإسكان الظاء على لغة أهل **نجد** وبكسرها على لغة **الحجاز** .

ـ قرئ : (ورضوان من الله اكبر) بكسر الراء على لغة **الحجاز**

وبضمها على لغة تميم وبكروتيس عيلان .

ـ قرئ : (وآتو حقه يوم حصاده) بكسر الحاء في حصاده على لغة الحجاز وبفتحها على لغة تميم .

ـ قريء : (وليجدوا فيكم غلظة) بكسر الغين على لغة أسد وبفتحها على لغة الحجاز وبضمها على لغة تميم .

من حكم تعدد القراءات

يحسن بالمؤمن أن يزداد معرفة بكتاب ربه وكيفيات أدائه ووجوه قراءاته حتى يقترب أكثر وأكثر من حمى ربه، فيفيض عليه من فضله ويناله من بركات القرآن ما هو شفاء لما في الصدور، وما هو زاد يبقى بعد الرحيل إلى المصير . فالقراءات القرآنية قد تشير إلى أسرار من البيان القرآني المعجز ، وقد تكون دليلا على بعض الأحكام الشرعية والاستعمالات العربية الفصحى ، وكلما تعمق المؤمن في دراستها وتدبرها زاد إيمانه بحقيقة لا يماري فيها إلا عنيد مكابر وهي منطوق كلام رب العزة عنه وهو يخاطب نبيه : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) .

وحتى لايكون الكلام هائما غير محدد نستعين بالله في استلهام بعض الأسرار من تعدد القراءات ، فقد ترجح القراءة رأيا فقهيا على آخر،ومثال ذلك مفهوم الطهارة للحائض ، فإن الطهارة في اللغة تعنى النقاء من الخبث وقد يتحقق هذا النقاء من مجرد توقف الدم عند المرأة في آخر أيام الحيض ويتأكد هذا المطهر بالتنظيف والإغتسال ، امام

هذا الاحتمال اختلف الفقهاء المستنبطون للأحكام من نصوص القرآن في جواز المعاشرة الزوجية عند انقطاع الدم وقبل الإغتسال ، ففريق اعتمد على قراءة حفص في قوله تعالى : ﴿ ولاتقربوهن حتى يطهرن﴾ بسكون الطاء وضم الهاء . فاستنبط من هذه القراءة أن مجرد النقاء طهارة فلامانع من المعاشرة . وفريق آخر اعتمد قراءة غيره بتشديد الطاء وأصلها يتطهرن والتطهر يعنى بصيغتة المبالغة في الطهارة ، وهذه المبالغة لاتتأتي إلا بالاغتسال فأوجب الغسل قبل المعاشرة ورجح هذا الرأي أيضا قوله تعالى : ﴿ فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ﴾.

وقد تضيف القراءات حكما جديدا فتغني القراءتان عن آيتين وذلك كما حدد الله عزوجل أعضاء الوضوء وما يجب على المتوضىء فعله فصرح بوجوب الغسل للوجه واليدين ، وصرح بوجوب المسح للرأس ، أما الأرجل فعطفت بالواو بعد مسح الرأس ، واختلف القراء في ضبط آخر الأرجل ، فبعضهم فتحها عطفا على الوجه واليدين ، وهما مغسولتان فيكون الحكم غسل الأرجل ، وبعضهم كسرها عطفا على الرأس فيكون الحكم مسح الأرجل ، وحين تدبر المحققون علموا أن الأصل أن تغسل الأرجل في الحالات العادية ، وأن المسح على الأرجل جائز إذا لبس المرء خفا على طهارة أو وضع على رجله جبيرة لمرض ، فدل كل من القراءتين على حكم شرعي فأغنت القراءتان عن آيتين .

وقد يفهم من القراءة معنى جديد لا يتعارض مع المعنى الذي تفيده القراءة الأخرى فيكون الاختلاف بينهما اختلاف تنوع ، ومحال على

القرآن وقراءاته أن يحدث فيهما اختلاف تناقض وتضاد فإن رب العزة يقول : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) .

ومثال ذلك أول سورة الحجرات حيث يقول سبحانه :﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدي الله ورسوله﴾ والمعنى واضح في هذه القراءة أن الله عزوجل ينهى عباده المؤمنين أن يقدموا أي شيء من المقترحات أو التعديلات أو المشروعات على ما ورد في كتاب الله عزوجل أو في سنة رسول الله من حيث إن الوحي في كليهما متفق تماما مع فطرة الإنسان ومع مصلحته إذ هو صادر ممن يعلم السر وأخفى .

وتأتي القراءة الثانية : لا تقدموا بفتح التاء والدال وتشديد الدال ، ومعناها نهي المؤمنين أن يتقدموا أمام الله وأمام رسوله ، وفي هذا تصوير رائع لقبح معارضة أوامر الله ورسوله حيث تجعل هذه القراءة المعارض في صورة من يتقدم ويقول لله ولرسوله اتبعاني فرأيي هو الأفضل وعلمي هو الأوسع ، والمعنى العام الذي يجمع بينهما : لا تفتاتوا على الله ورسوله شيئا حتى يذكره الله على لسان نبيه ، فإذا ذكر فلا جدال ولا اعتراض .

وقد تحقق بعض القراءات تناسبا صوتيا وإيقاعيا مؤثرا عند التلاوة ، وذلك من خصائص البلاغة العربية ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿وتظنون بالله الظنونا ﴾ بمد فتحة النون حتى تتولد ألف زائدة لتناسق رؤوس الآى حيث إن الآيات التي قبلها مختومة بقوله تعالى : ﴿ وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ﴾﴿وأعد للكافرين عذابا أليما﴾﴿ وكان الله بما

تعملون بصيرا﴾ والآيات التي بعدها مختومة بقوله سبحانه : ﴿ وزلزلوا زلزالا شديدا ﴾﴿ ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا﴾ ﴿ إن يريدون إلا فرارا ﴾ .

بل إن بعض القراءات المشهورة من حيث إنها صحيحة السند ولكنها غير متواترة قد توقفنا على بعض المعانى الرائعة ، وذلك مثل قراءة قوله تعالى :﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ﴾ . بفتح الفاء وكسر السين من (أنفسكم) حيث تدل على أن الرسول ﷺ قد اختاره ربه من أعرق البيوت العربية ومن أنفسها وأعلاها شأنا وخلقا وسلوكا ، بيد أن القراءة المتواترة تدل على أنه من أنفسهم يعرف لغتهم وكيف يعالج أدواءهم وكيف يبلغ إليهم رسالة ربهم ، وبهذين المعنيين تتعانق القراءتان وتنويان عن آيتين . وذلك هو الإعجاز .

وهكذا رأينا من حكم تعدد القراءات ما يرجح حكما شرعيا ، ومايضيف حكما جديدا ، وما يفهم معنى طريفا في إطار اختلاف التنوع ، وما يحقق تناسبا صوتيا وإيقاعيا ، تستوي في ذلك القراءات المتواترة والمشهورة وسبحان من تحدى بهذا القرآن الانس والجان على أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

خاتمة

من فضل الله وكرمه أن وفق إلى إتمام هذه المحاولة لتفسير منطقي قرآني لنشأة اللغة الإنسانية الأولى ، وكشف زيف الماديين في ربط هذه النشأة بنظرية التطور الداروينية ، ولتفسير متسق مع معطيات الروايات المختلفة لحديث الأحرف السبعة ، ولدرء شبهة اختلاف القراءات عند المستشرقين بسبب طبيعة الخط العربي ، ولبيان بعض الأسرار البلاغية والمعنوية لتنوع القراءات القرآنية .

ويعلم الله أنني بذلت جهدا في الرجوع إلى كتب القراءات والتفسير وعلوم القرآن واللهجات وفقه اللغة حتى استطعت أن أقدم هذه المحاولة .

ولعل هذا يسهم في توضيح الحقائق أمام شبابنا الذي انجذب إلى الثقافات الغربية بمؤامرة خبيثة صرفته عن تراثه ومعطياته .

وأدعو إخواني المتخصصين أن يصوبوا ما عساه قد وقع من خطأ ويقوموا مايرون فيه من عوج وسبحان من كلامه وحده هو المنزه عن الخطأ والنسيان .

وأدعو الله عزوجل أن ينفع به وأن يجعله ذخرا لنا يوم لاينفع مال ولابنون .

أ.د. محمد المختار محمد المهدى